

﴿يا أيها الناس﴾ تأملات في عالمية الخطاب القرآني. د. منصور علي سالم ناصر العمراي*



ملخص البحث.

يهدف هذا البحث إلى بيان العالمية الشاملة في الخطاب القرآني، كونه موجهاً إلى الإنسانية كافة دون تمييز، وهذا يجسد التصور العالمي للإنسانية الواحدة في الرسالة الخاتمة التي جاء بها القرآن الكريم. يتكون هذا البحث من: المقدمة: والتي تناولت فيها أسباب اختيار الموضوع، ومشكلته، وحدوده، وهدفه، ومنهجه. ومبحثين: المبحث الأول: مفهوم العالمية القرآنية. المبحث الثاني: مجالات العالمية من خلال قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ في القرآن الكريم. الخاتمة وفيها أبرز النتائج والاستنتاجات والتوصيات.

Abstract

This research aims to demonstrate the comprehensive universality in the Qur'anic discourse, as it is directed at all human beings without distinction. This reflects how the world is viewed as one humanity constituting the ultimate objective that came out of the Holy Quran.

This research consists of: Introduction: It dealt with the objectives of research, the significance of the study, and the research methodology. Chapter One: It covers the concept of Quranic universality and this has been discussed in three sections. Chapter Two: The aspects of the world through the verse: (i. e., people) in the Holy Quran. And this includes four sections. Conclusion: It includes the most prominent findings, summaries and recommendations.

* أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك بجامعة الحديدة، اليمن، تاريخ استلام البحث ٢٠١٩/١١/١٩م، وتاريخ قبوله للنشر ٢٠٢٠/١/٤م.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.
أما بعد:

فإن رسالة الإسلام هي رسالة السماء الخالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ لهذا جاءت للناس كافة على اختلاف أجناسهم الأسود والأحمر والأبيض، والعربي والعجمي، والقريب والبعيد، والشريف والوضيع، وبهذا تتجسد العالمية من خلال قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

فالرسول ﷺ كما يتضح من النصوص الصريحة من الكتاب والسنة أنه قد أرسل للناس كافة بما فيهم أهل الكتاب من يهود ونصارى، ومن ثم فالدعوة التي يحملها هي دعوة للناس كافة على خلاف الأمم السابقة التي كانت تأتي رسالتها خاصة بها في زمن ووقت محدد، وشريعة تخصها حسب ظروفها وبيئتها قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

لكن الواقع الذي تعيشه الأمة الإسلامية اليوم من هوان وبؤس وشقاء، يرفع درجة اليقين لدى كل مسلم أنه لا خلاص لهذه الأمة إلا أن تجعل كتاب الله الكريم سبيلاً لنجاتها، وهادياً لحيرتها، وبهذا ستعود كما كانت قائدة للأمم الأرض، ولن يأتي هذا التمسك إلا إذا باتباع رسولها ﷺ الذي خاطب الله عزوجل الأمة بشأته: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

ومن هذا المنحى فإن الناظر والمتأمل للخطاب القرآني في قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس﴾ والتي وردت في عشرين موضعاً من القرآن الكريم كلها تجسد معنى العالمية في الخطاب والهدف.

ومن هذا المنطلق فقد اخترت هذا البحث الموسوم بـ «يا أيها الناس» تأملات في عالمية الخطاب القرآني.

أسباب اختيار الموضوع:

مما دفعني لاختيار هذا الموضوع سببان مهمان:

- ١- الخطاب القرآني الموجه إلى الإنسانية الشاملة دون تمييز في كثير من الآيات القرآنية، مما يجسد التصور العالمي للإنسانية الواحدة في الرسالة الخاتمة.
- ٢- نقل صورة واضحة عن عالمية الخطاب القرآني، وتميزه عن غيره من الرسائل السماوية.

مشكلة البحث.

ربما أهم مشكلة تقابل الباحث في دراسة هذه الموضوعات هي:

- ١- قلة المراجع والمصادر في هذا المضمار.
- ٢- عادة ما تحتاج هذه الدراسة التأملية لفكر ثاقب، واستنباط صائب، وهذا ما يجعل الباحث يعيد النظر مراراً ومرات خاصة في المواطن التي يصعب على المتأمل فيها لأول وهلة استكشاف الرؤية المرادة من السياق القرآني.

حدود البحث.

تقتصر هذه الدراسة الموضوعية على الآيات الكريمة التي تصدرت بقوله تعالى: «يا أيها الناس» وهي دراسة تأملية استقرائية تحليلية لعالمية الخطاب القرآني دستور الرسالة الخاتمة الموجهة للناس عامة.

أهداف البحث.

يهدف البحث إلى:

- ١- بيان عظمة الرسالة العالمية ودستورها الخالد القرآن الكريم.
- ٢- الرد على أولئك الذين يقولون بأن القرآن لا يصلح لتطورات العصر وحركة الزمن، بأن القرآن كامل شامل لكل أطراف البشرية عامة على وجه الكرة الأرضية، وفيه الخلاص للبشرية إلى قيام الساعة.

٣- يتضمن البحث إثباتا لعلمية الرسالة وهو عكس ما يردده البعض من أن القرآن الكريم رسالة عربية خاصة بأمة العرب، والجزيرة العربية فقط.

منهج البحث:

المنهج الذي اتبعته هو المنهج البحثي الاستقرائي التحليلي من خلال الدراسة التطبيقية للآيات التي تصدرت بالنداء القرآني ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ والتي تتجسد فيها معنى العالمية بأعلى صورها، متتبعا لأقوال من مظانها الأصلية، مدعما ذلك بفنيات البحث العلمي المتبعة في البحوثات.

طريقة البحث.

إن الطريقة المتبعة في تقسيم الموضوع هي طريقة البحوث العلمية الأكاديمية على النحو التالي:

- ١- كتابة الآيات وعزوها إلى السور التي وردت فيها مع بيان اسم السورة ورقم الآية.
- ٢- إذا استدعى المقام الاستشهاد بالآية مرة أخرى في نفس الصفحة فيإني لا أعزوها مكتفيا بما أشرت إليه سابقا.
- ٣- استخدام القوسين المزهرين للآيات لتمييزها عن ما سواها.
- ٤- استخدام قوس واحد لتمييز الأحاديث النبوية والآثار.
- ٥- إذا نقلت كلام عالم من العلماء بالنص فيإني أنصصه بين قوسين وأشير في الهامش لاسم الكتاب، ومؤلفه، ودار النشر، ورقم الطبعة، وسنة الطبع إن وجد، مع بيان رقم الجزء والصفحة.
- ٦- إذا تم اقتباس كلام من أي كتاب مع تصرف يسير فيإني أكتب العبارات بدون أقواس ثم أشير في الهامش بكلمة ينظر، وأشير للكتاب الذي تم أخذ المعلومات منه.
- ٧- أنقل آراء المفسرين في الموضوع الواحد مرتبا ذلك حسب أقدمية المؤلفين؛ لأن اللاحق عادة يستفيد ممن سبقه.

هيكل البحث. إن الهيكل العام للبحث يتكون من: مقدمة ومبحثين وخاتمة كما يلي:

المقدمة: وتناولت فيها أسباب اختيار الموضوع، ومشكلته، وحدوده، وهدفه، ومنهجه.

المبحث الأول: مفهوم العالمية القرآنية.

المبحث الثاني: مجالات العالمية من خلال قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾
في القرآن الكريم.

الخاتمة وفيها أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: مفهوم العالمية القرآنية.

إن الأهداف التي أنزل من أجلها القرآن الكريم، هو صلاح العالم بأسره، وعلى رأس ذلك الإنسان الذي يمثل محور هذا الكون في البناء والاستخلاف، ولهذا جاء الخطاب القرآني مصبوغاً في أسلوبه وتشريعاته بما يحقق ذلك البعد الأعظم، عكس الرسائل السماوية السابقة التي جاءت مقتصرة على أقوام معينين، وتجمعات إقليمية معينة، وفي زمن ومكان معينين.

ولما أراد الله أن تكون هذه الرسالة المحمدية هي خاتمة الشرائع ومهيمنة عليها استوعبت الإنسان والزمان والمكان في كل الأوقات، لما فيه من بعد علمي يفي بحاجات البشرية وقضاياها في جميع المجالات المختلفة، وقد تجسّد هذا الأمر على أرض الواقع طوال قرون متعاقبة شملت ربوع المعمورة، ولم يعجز عن إيجاد الحلول والتشريعات للبشرية جمعاء، بل استطاع أن يجسد الرحمة والعدل والإنصاف والحريّة فعاشت في ظلّه الأمة على اختلاف فئاتها وديانيتها معززة ومكرمة.

إن الإسلام ما دامت هذه حقيقته التي رسمها إبان مده العريض الذي عم المعمورة فإنه قابل للعودة من جديد إذا ما صلح أهله وحكموا هذا الدين فسيعودون لقيادة زمام أمر العالم من جديد، وسيعم ربوع الأرض، وستنعم شعوب العالم وقاراته مرّة أخرى بهداه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨] فظهور الدين آت لا محالة حسب الوعد الإلهي، وهو الذي

يتلاءم مع البعد العالمي الذي دلّت عليه نصوص القرآن الكريم. إنَّ هذه الدراسة تكشف جانباً من تلك الحقيقة - هي حقيقة علمية خطابة لبني الإنسانية- في هذا الوقت الذي تكالب فيه أعداء الإسلام من كل ناحية لفرض أنظمتهم على العالم الإسلامي لطمس هويته، متناسين أننا أمة أصحاب رسالة عالمية جاءت لتحافظ على قيم الشعوب وأخلاقها التي لا تتعارض مع أصوله ومبادئه.

ومن هذا المنطلق فإننا سنبين هذا المفهوم «العالمية» التي اختصت بها رسالة محمد ﷺ دون غيرها من الرسالات؛ كونها آخر رسالة شهدتها الأرض، وستستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: المعنى اللغوي والاصطلاحي للعالمية.

جاء في معجم مقاييس اللغة في مادة (علم): «من الباب العالمون، وذلك أنّ كلّ جنسٍ من الخلق فهو في نفسه مَعْلَمٌ وَعَلَمٌ. وقال قوم: العالم سَمِّيَ لاجتماعه. قال الله تعالى: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات ١٨٢]، قالوا: الخلائق أجمعون. وأنشدوا:

ما إن رأيتُ ولا سمعُ *** ثُ بمتلهم في العالمينا^(١).

وزاد في لسان العرب: «العالمون: أصناف الخلق، والعالم: الخلق كله. وقيل هو ما احتواه بطن الفلك»^(٢).

والعالمية (Universality): هي مفهوم قديم تعددت صورته ودلالاته في العديد من الثقافات وعبر العصور المختلفة فقد وصفها «أرسطو» بأنها مرادفة لمفهوم العموم. والعالمية في العصر الحديث: هي حالة من الانتشار والأهمية يكتسبها أي نتاج معين بشكل عام حين يخرج عن الحدود الإقليمية أو الوطنية

(١) معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر- بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م: (١١٠/٤).

(٢) لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفرريقي المصري، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى: (١٣٤ / ١٢) وجاء نحو هذا في مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان- بيروت - ١٤١٥ - ١٩٩٥: (١٨٩/١)

«المحلية» ويصبح مقروءاً ومعروفاً في مناطق أخرى من العالم^(١).

أما مفهوم العالمية من الناحية القرآنية: فهي تعني شمولية الخطاب القرآني بأوامره ونواهيه، وأحكامه وتشريعاته لكل بني الإنسانية دون استثناء، وذلك دلالة على شمولية هذه الرسالة دون سابقها.

المطلب الثاني: دلائل هذه العالمية.

أولاً: العالمية من حيث مصدر التشريع (الكتاب والسنة)

مما يدلّ على البعد العالمي في الخطاب القرآني، أن الله تعالى ختم الكتب السابقة بكتاب عام لجميع الأمم والشعوب على اختلاف أجناسهم، ولغاتهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وأن هذا الكتاب - القرآن - مهيمن على ما سبقه من التشريعات والكتب السماوية السابقة قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وما القرآن إلا دستور حياة ينتفعون به الناس في صلاح اعتقادهم وطاعة ربهم، وتهذيب أخلاقهم، وآداب بعضهم مع بعض، والمحافظة على حقوقهم، ودوام انتظام مجامعتهم، وكيف يعاملون غيرهم من الأمم الذين لم يتبعوه^(٢).

وقد وصف الله القرآن بعدة أوصاف تدلّ على بعده العالمي في الهداية والإصلاح، وأنه أفضل الكتب وأكملها صالحاً لكل زمان ومكان. فمن هذه الصفات^(٣):

١- العلوّ والحكمة. قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]؛ وذلك لما حواه من الحكمة؛ ولما فيه من صلاح أحوال النفوس والقوانين المقيمة لنظام الأمة.

(١) ينظر: دليل الناقد الأدبي: د. ميجان الرويلي، ود. سعد البازعي، ط٤، بيروت - لبنان:

(١٨٦-١٨٧)

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي - بيروت - لبنان،

الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م: (٣٠ / ١٤٦)

(٣) ينظر: مجلة الوعي الإسلامي، الصادرة عن وزارة الأوقاف والإرشاد - دولة الكويت، العدد (٥٣٠)، مقال بعنوان «البعد العالمي في الخطاب القرآني، بقلم: عبد الكريم حامدي.

٢- وصفه بالمجيد، في قوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١] فالقسم بالقرآن كناية عن التثوية بشأنه؛ لأن القسم لا يكون إلا بعظيم عند المقسم، فكان التعظيم من لوازم المقسم، ووصف القرآن بالمجيد؛ لكونه مشتملاً على أعلى المعاني النافعة لصلاح الناس.

٣- وصفه بأنه كريم. قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧] فالآية فيها إشارة إلى تفضيل القرآن على غيره من الكتب السماوية السابقة مثل: التوراة والإنجيل والزيور، حيث زاد فضله عليها باستيفائه لكل أغراض الدنيا والدين، والمعاش والمعاد، وإثبات المعتقدات، ودحض الباطل، كما يتميز بوضوح المعاني وكثرة الدلالات، وقلة الألفاظ وشمولية المعنى، كما يتميز بحسن آياته، ومدى تأثيره في نفوس السامعين.

٤- وصفه بالهيمنة على الكتب والتشريعات السابقة في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة ٤٨] أي شاهداً وقيماً على الكتب السابقة، وذلك لما فيه من صلاح للبشر في العاجل والآجل.

والرسالة العالمية هي خصيصة لنبينا ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي ومنها.... وكان النبي يعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس كافة وأعطيت الشفاعة»^(١).

يقول سيّد قطب: «لقد جاء هذا الكتاب لينشئ أمة وينظم مجتمعا، ثم لينشئ عالماً وقيماً نظاماً، جاء دعوة علمية إنسانية لا تعصّب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس»^(٢).

(١) صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٧

— ١٩٨٧م: (١/٤٤٨) كتاب التيمم، حديث رقم (٣٢٨)
(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق - بيروت، طبعة جديدة مشروعة، ١٣٩٣هـ -

ثانياً: العالمية من حيث عموم الخطاب.

ومما يدل على البعد العالمي للخطاب القرآني، تميّز خطابه بالعالمية، حيث صيغ صياغة العموم والشمول المستوعب لكل بني الإنسانية.

والمتتبع للخطاب القرآني يجده مرّة يخاطب الإنسان، ومرّة يخاطب الناس، ومرّة يخاطب المؤمنين وهكذا... فخطابه لعموم الإنسان، كقوله في معرض الوصية بالوالدين: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ [الأحقاف: ١٥] وكقوله في معرض بيان مسؤولية الإنسان عن نتائج أعماله: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [النجم: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦]. وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ فالوصية والمسؤولية تخاطب عموم البشر في هذا الكون أينما وجدوا، فكل إنسان مطالب بالإحسان إلى الوالدين، وكذلك كل إنسان مسئول عن نتائج أعماله من خير أو شر.

وخطابه لعموم الناس على اختلاف أجناسهم وأعراقهم ولغاتهم وأوطانهم كالأمر بعبادة الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١] وكالأمر بالتقوى في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]

فهذه النصوص ذات طابع عالمي تخاطب الناس عامة، بأنهم مأمورون بعبادة الخالق سبحانه، ومأمورون بابتغاء طلب الرزق الحلال الذي أمرهم به، وأما خطابه للمؤمنين فهو عام أيضاً لكل من تحقق فيه وصف الإيمان، في أي مكان وزمان من العالم، كخطابهم بفرض القصاص في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وخطابهم بفرض الصيام عليهم في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ

كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿ [البقرة: ١٨٣]، وكخطابهم بالدخول في السلم في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]. وكخطابهم بترك الربا، ونهيهم عن أكل أموال الناس بالباطل، وأمرهم بالوفاء بالعقود، في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]. فهذه النصوص وغيرها كثير في القرآن مما ورد بهذه الصيغة والأسلوب الخطابي العالمي الذي يشمل بني الإنسانية في أي زمان ومكان. ومما تجدر الإشارة إليه أن الخطاب الإلهي مر بدورين منذ بداية دعوة الأنبياء عليهم وعلى رسولنا أفضل الصلاة والسلام^(١):

الأول: الخطاب الخاص أو الحصري كما يسميه بعض الكتاب، وهو خطاب يتوجه مضمونه إلى فئة معينة من الناس، وهو مناسب لمقام الرسالات السابقة التي كانت تأتي مقصورة على فئات معينة من الناس، أو خطاب موجه لفئة من الأنبياء المصطفين من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] فالآية تشير إلى خطاب خاص وحصري بأنبياء الله المصطفين ابتداء بآدم، ثم نوح، ثم إبراهيم وآله إلى يعقوب والأسباط ثم آل عمران من ذرية إبراهيم، إلى يحيى بن زكريا، وعيسى ابن مريم الذي بشر بالنبي الخاتم ﷺ.

الثاني: دور الخطاب العالمي، ويبدأ ببعثة محمد ﷺ إلى قيام الساعة، ومن ثم فإن ختام النبوة ليس مجرد توقيت زمني فحسب، بل ختامه يقتزن بحدث كبير، وهو انتهاء الخطاب الإلهي الحصري الإصطفائي لينطلق الخطاب العالمي من الأرض المحرمة وليس من الأرض المقدسة، ويبدأ بالتخصيص العربي نهاية للإصطفاء وافتتاحاً للعالمية في الوقت ذاته. وفي هذا الشأن يقول الشيخ محمد الغزالي: «فخطاب القرآن عالمي، ورسالته خاتمة، وله بعد في الزمان الماضي

(١) ينظر: منهجية القرآن المعرفية: محمد أبو القاسم حاج حمد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي فرجينيا، أميركا، ط، ١٤١١هـ-١٩٩١م: (١٣-٩٢)

والحاضر والمستقبل، وله بعد في المكان بحيث يشتمل العالم كله»^(١).

ومن خلال ما سبق يتضح لنا بأن صيغ التشريع التي جاء بها القرآن الكريم صياغة عامة تستوعب قضايا الإنسان وحاجاته المتجددة الحاضرة منها والمستقبلية، وجاءت معظم النصوص عامة في اللفظ والمعنى، حتى اشتهرت تلك القاعدة الأصولية: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»^(٢). ومفاده أن سبب النزول لا تقيّد معاني النصوص ودلالاتها بمن نزل فيهم، بل تتعدّى لتشمل غيرهم ممن لم ينزل فيهم الخطاب، كما جاءت نصوص القرآن في معظمها ظنية الدلالة تحتل أكثر من معنى، ليتسع تفسيرها بما يتلاءم مع المقصد من عالمية الخطاب، فلا تعترضها الظواهر الجغرافية، ولا الأحداث التاريخية، ولا التطور الحضاري للبشرية، وهذا ما يشهد له الفقه الإسلامي، فإنه ذو نزعة عالمية، وإن كتب بلغة العرب وفي أرضهم، إلا أن مضامينه عالمية؛ لكون المصدر الأول لهذا الفقه عالمي النزعة، ألا وهو القرآن الكريم، وقد حكم هذا الفقه شعوباً شتى في بقاع الأرض، فلم يعجز عن الوفاء بحاجاتها^(٣).

فالخطاب القرآني بعالميته استطاع استيعاب الحضارات القديمة، بما تحويه من ثقافات متنوعة وأديان متعددة وأعراف مختلفة، ولم يكن ذلك مانعاً ولا حائلاً أمام تلك الشعوب من الاندماج مع المسلمين والتعايش معهم مع الحفاظ على خصوصياتهم الدينية والثقافية، وما زال الخطاب القرآني إلى اليوم قادراً على إعادة ذلك الدور المفقود؛ لأن الله الذي كتب له العالمية حفظه من التبديل والتحرير الذي أصاب الكتب السابقة^(٤).

(١) كيف نتعامل مع القرآن: محمد الغزالي، دار الانتفاضة - الجزائر: (٤٨٢)
 (٢) أضواء البيان: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع - بيروت - لبنان ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م: (٣ / ٣٥٠)
 (٣) ينظر: الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد: د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة - القاهرة، مصر. ط ٢، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م: (٢١ - ٣١)
 (٤) ينظر: البعد العالمي في الخطاب القرآني، بقلم: عبد الكريم حامدي، مجلة الوعي الإسلامي، العدد: (٥٣٠)

ثالثاً: العالمية من حيث عموم الرسالة الخاتمة.

ومن الدلائل على البعد العالمي في الخطاب القرآني، الرسالة المحمدية التي جاءت شاملة لعموم البشرية، صالحة لكل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] فالآية تبين الغاية من تنزيل القرآن على الرسول ﷺ، وذلك ليكون للعالمين نذيراً. يقول سيد قطب في هذا الخصوص: «فالرسالة تدل على ثبوت تلك العالمية منذ مطلع البعثة النبوية، بما تحمل من طابع عالمي، ووسائل إنسانية كاملة ذات بعد عالمي، وهذا النص مكّي وله دلالاته على إثبات عالمية هذه الرسالة منذ أيامها الأولى، لا كما يدعي بعض المؤرخين غير المسلمين أن الدعوة الإسلامية نشأت محلية، ثم طمعت بعد اتساع رقعة الفتوح أن تكون عالمية، فهي منذ نشأتها رسالة للعالمين، طبيعتها طبيعة عالمية شاملة، ووسائلها وسائل إنسانية كاملة؛ وغايتها نقل هذه البشرية كلها من عهد إلى عهد، ومن نوح إلى نوح، عن طريق هذا الفرقان الذي نزله الله على عبده ليكون للعالمين نذيراً، فهي عالمية للعالمين والرسول يواجهه في مكة بالكذب والمقاومة والجحود»^(١).

ومما يؤكد ذلك التوجيه القرآني للنبي ﷺ الذي يحدد له مهمته الكبرى في الرسالة وهي الإنسانية المطلقة بدون استثناء. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] فالآية تثبت باللفظ الصريح عالمية الرسالة النبوية، ومعنى ذلك أنها لا تختص بقوم، ولا أرض ولا جيل، بل هي للناس جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها، بما تضمنته من قوانين تتناسب مع تطور البشرية، وكمال أصولها العقديّة، وقابليتها للتطبيق المتجدد في فروعها العملية، وكذا ملاءمتها للفترة الإنسانية التي يلتقي عندها الناس جميعاً^(٢).

ومن الأدلة على عالمية هذه الدعوة قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فالتعريف في قوله - للعالمين - يفيد الاستغراق، فهو شامل لكل ما يصدق عليه اسم العالم، وتفيد صيغة الخطاب أن الرحمة

(١) في ظلال القرآن: (٣٠٢ / ٥)

(٢) ينظر: المصدر السابق: (٣٠٢ / ٣)

منحصرة في الرسالة الخاتمة، ومعنى ذلك أنها أوسع الشرائع رحمة بالناس، فإن الشرائع التي سبقتها، وإن كانت تتّصف بالرحمة إلا أنها لم تكن رحمة عامة، إمّا لكونها لا تتعلق بجميع أحوال المكلفين، كشرعية إبراهيم «كانت رحمة خاصة بحال الشخص في نفسه وليس فيها تشريع عام، وقريب منها شريعة عيسى». وإما لأنها تشتمل على أنواع من المشقة في أحكامها اقتضتها حكمة الله تعالى في سياسة الأمم وهكذا سائر الرسائل السابقة^(١).

جاء في كتاب «الخصائص العامة للإسلام» ما يبين مدى طبيعة الرسالة القرآنية: «إنها رسالة لكلّ الأزمنة والأجيال ليست رسالة موقوتة بعصر أو زمن مخصوص ينتهي أثرها بانتهاؤه، كما هو الشأن في رسالات الأنبياء السابقين على محمد ﷺ، وهي كذلك غير محدودة بمكان ولا بأمة ولا بشعب ولا بطبقة، إنَّها الرسالة الشاملة التي تخاطب كل الأمم، وكل الأجناس، وكل الشعوب والطبقات»^(٢).

رابعاً: العالمية من حيث غاية هذا الدين.

وإذا كان الخطاب القرآني جاء عالمياً في لفظه ودلالته، فإنه أيضاً جاء عالمياً في مقصده وغايته، حيث جاءت نصوصه دالة على أن العالم محل العناية الربانية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالصّلاح العالمي ضرورة حتمية ونتيجة لازمة من خلق الكون والإنسان والحياة؛ ذلك أن الهدف الأسمى من خلق العالم بجميع مكوناته، إيجاده على هيئة سليمة، تمكّن الإنسان من عمارته وإقامة حضارته فيه. والقرآن مليء بمثل هذه الشواهد، فسورة الفاتحة والأولى في ترتيب المصحف تفتتح الخطاب بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] ومعنى ربوبيته للعالمين: أن الله سبحانه لم يخلق الكون هماً وإنما يتصرف فيه بالإصلاح ويرعاه ويربّيه، وكلّ العوالم والخلائق تحفظ وتتعهّد برعاية الله رب العالمين^(٣). وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] دليل على العناية الإلهية بالعالم الأرضي، من خلال خلقه لمن يخلف فيها ويقوم بإدارة شؤون الحياة، وقد زود بالطاقة الكامنة،

(١) - ينظر: التحرير والتنوير: (١٢٣ / ١٧)

(٢) الخصائص العامة للإسلام: د. يوسف القرضاوي، دار الشهاب- الجزائر: (٥٩)

(٣) في ظلال القرآن: (٢ / ١)

والاستعدادات التي هيأه الله بها من أجل أن يقوم بواجب هذه الخلافة في الأرض، كما دل استفهام الملائكة المشوب بالتعجب أنهم علموا أن مراد الله تعالى من خلق الأرض وإيجادها هو صلاحها وانتظام أحوالها؛ ولذلك تعجبوا من خلق من يقيم فيها الفساد، فكان جواب الله تعالى أنه أعلم بما في خليفته من صفات الصّلاح والفساد، وأن الصّلاح غالب على الفساد فيه، ومن ثم يتحقّق المقصد من الخلق وهو عمارة الأرض وصلاحها^(١).

خامساً: العالمية من حيث الظهور والانتشار.

مما يدل على البعد العالمي في الخطاب القرآني، النصوص القرآنية القاطعة بظهور هذا الدين والتّمكين لأهله، وأن ذلك آت لا محالة حينما يأذن الله وتتهيأ أسبابه، وظهور الدين، معناه علوه على جميع الأديان السابقة والتّمكين له في الأرض^(٢).

ففي سورة الصف جاءت آية الظهور للدين بعد ذكر خطاب موسى إلى بني إسرائيل بقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥] ثم خطاب عيسى ابن مريم إلى بني إسرائيل والبشارة في قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّورَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الصف: ٦] حيث يتم في هذه الآيات الرّبط بين مرحلة الخطاب الخاص بأقوام معينين، والخطاب العالمي المتمثل في علمية الرسالة الخاتمة، ثم إطلاق هذه العالمية في الظهور الكلّي لهذا الدين، أما في سورة الفتح فقد جاءت البشارة بالظهور الكلّي للدين عقب ذكر الرفض المطلق له من قبل المشركين، فقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح: ٢٨].

(١) ينظر: البعد العالمي في الخطاب القرآني: عبد الكريم حامدي، مجلة الوعي الإسلامي -

العدد: (٥٣٠)

(٢) ينظر التحرير والتنوير: (٥٤/٥)

والملاحظ هنا أن الآيات الثلاث التي بشرت بالظهور العالمي بشرت بالمضمون وهو «الدين» ولم تذكر المسمى وهو «الإسلام» لأن الاتجاه إلى المضمون يحقق ثلاثة أغراض كما جاء في كتاب «أبعاد غائبة عن فكر وممارسات الحركات الإسلامية المعاصرة»^(١): أحدها: أن المخاطبة بالمضمون فيه تجاوز لعصبيات التدافع الديني الموروث تاريخياً، ومن ثم تتعدم لغة الحوار بين أصحاب الأديان فيفوت المقصد والغاية من مخاطبتهم ومحاورتهم. ثانيهما: أن المخاطبة بالمضمون تتجه دوماً إلى المنهج المتمثل في الهدى ودين الحق، الذي يصلح أن يكون منطلقاً لحوار أهل الأديان. ثالثها: دفع توهم بعضهم أن المراد بالدين الجديد إطاره البشري القديم، فيؤدي إلى لبس أو توهم أن الإسلام سينتشر بالأسلوب والوسائل نفسها التي تحققت بها نبوءات أنبياء أهل الكتاب، كالحورق الغيبية ومن دون أسباب وليس الأمر كذلك، بل النصر والظهور لهذا الدين سيكون محكوماً بقوانين بشرية وسنن أرضية.

وأما التمكين لهذا الدين وأهله في العالم فقد تبأ الله به في قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥] فالآية وعد من الله لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء في الأرض، أي أئمة الناس والولاية عليهم، وبهم تصلح البلاد^(٢). وتمكين الدين أيضا انتشاره في القبائل والأمم وكثرة متبعيه، واستعير التمكين الذي حقيقته التثبيت والترسيخ لمعنى الشيوع والانتشار؛ لأنه إذا انتشر لم يخش عليه الانعدام، فكان كالشيء المثبت المرسخ، وإذا كان متبعوه في قلة كان كالشيء المضطرب المتزلزل^(٣) وهذا الوعد هو الذي أشار إليه النبي ﷺ في أحاديث كثيرة منها حديث الحديبية إذ جاء فيه:

- (١) ينظر: أبعاد غائبة عن فكر وممارسات الحركات الإسلامية المعاصرة، طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي . فرجينيا، أمريكا، ط١، ١٤١٧هـ . ١٩٩٦م: (٨٥).
- (٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: محمود حسن، دار الفكر - بيروت، الطبعة الجديدة، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م: (٣/٣٦٥)
- (٣) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/١٠٠)

«وإن هم أبوا - أي إلا القتال - فو الذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي - أي ينفصل مقدم العنق عن الجسد - ولينفذنَّ الله أمره»^(١). هذه أهم المظاهر والدلائل على البعد العالمي في الخطاب القرآني وهو أن المقصود بهذا الخطاب ليس العرب وحدهم، بل هو متوجه لأولي الأبواب في أي زمان ومكان في العالم لإدراك مكنونات الكتاب وأسراره التي لا تنكشف إلا بمزيد من التأمل والتدبر الذي لا يؤتبه كل الناس، بل هو من خصوصيات النخبة المفكرة العاملة، ومن هنا فإن الأوساط العلمية المثقفة يقع على عاتقها أكبر واجب في الفهم والتفسير لنصوصه بما يتلاءم مع روح العصر ومقتضيات المرحلة الراهنة، التي تحاول العولمة الغربية فرض مشروعها التغريبي على العالم، في غياب المشروع القرآني المهمل من قبل أتباعه، والمتهم من قبل أذعيائه. فالقرآن لم ينزل لوقت معين كما يروج له بعض المنهزمين والمنخدعين بالحضارة الغربية المعاصرة، الذين يدعون أن الخطاب القرآني تجاوزه الزمن، ولا يعدو أن يصبح كتاباً تاريخياً لا يفيد أتباعه شيئاً في الوقت الراهن، إن هذه الفرية يكذبها الواقع والحضارات المتعاقبة عبر الزمن، حيث استطاع الخطاب القرآني استيعاب جميع الأجناس من كل أصقاع الأرض ونشر الرحمة والرخاء والحرية في كل أرجاء المعمورة شهد بعظمتها كل العظماء والمفكرين من جميع أجناس الأرض^(٢). فالقرآن رسالة خالدة ذات صبغة عالمية رائدة لا تقتصر على عصر دون عصر، ولا أمة دون أمة، ولا مكان دون آخر، فهي إنسانية شاملة لكل أجناس الطيف البشري إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

المطلب الثالث: آثار العالمية القرآنية.

أما آثار هذه العالمية فهي تتمثل في:

١ - الرسالة العالمية التي عمت مشارق الأرض ومغاربها، ابتداء من نقطة انطلاق الدعوة الخالدة من أم القرى ومن حولها قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَّارَكٌ﴾

(١) صحيح البخاري: (٩٧٤/٢) حديث رقم (٢٥٨١) كتاب الشروط، باب الشروط في

الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

(٢) ينظر: مجلة الوعي الإسلامي، العدد (٥٣٠)

مُصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ [الأنعام: ٩٢]، وحملت الأمة من بعده ﷺ أمر التبليغ امتدادا لدعوة الحق التي جاء بها؛ لينذر بها بني الإنسان، يقول سبحانه: ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقوله أيضا: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم: ٥٢]. ويقول الرسول ﷺ: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً»^(١).

يتبين لنا من سياق الآيات القرآنية وسياق الحديث النبوي الشريف عالمية الدعوة الإسلامية وعدم اقتصرها على جنس بعينه، أو لسان، أو لون، ومن ثم فالأسس التي ابنت عليها هذه الدعوة لا تعبأ بالحدود الإقليمية، ولا تكثرث للحواجز الجغرافية، ولا تقيم وزناً للفواصل العرقية؛ لأن الرابطة الوحيدة عندها رابطة الإيمان والتقوى والوحدة الإسلامية، وليس هذا من الناحية النظرية فحسب، كما نجد ذلك في الأديان والمذاهب والنظريات التي تدعي أنها لا تفرق بين الناس. فالنصرانية مثلاً تقول: إنه لا فرق عندها بين لونٍ ولون، وجنس وجنس، والميزان عندها هو القرب من الخير والحق والعدل والسلام. والشيعوية أيضاً تقول: إنها قامت لتحطيم كل الفروق والحواجز بين الناس، وإقامة الأخوة البشرية، وإزالة ألوان التفرقة، بما في ذلك التفرقة في المستوى المالي أو غيره. ومثل ذلك الماسونية، فهي تزعم وتدعي أنها تقوم على الأخوة والعدل والمساواة. وهكذا... فالشعارات وحدها لا تكفي، والكلمات وحدها لا تغني.

٢- التطبيق الفعلي لهذه العالمية من خلال تنفيذ شعار الأمة الواحدة المتساوية، حيث لمس هذا التطبيق كل أبناء الجنس البشري بتعدد لغاتهم واختلاف انتماءاتهم، وأصبح المجتمع الإسلامي مجتمعاً يشكل نسيجاً متلاحماً متكاملماً منسجماً من أجناس مختلفة في البلدان واللغات، وامتزجت كلها تحت راية الإسلام، والكل يشعر أن هذا الدين جاء ليخاطبه، ولم يكن قاصراً على أمة دون أخرى؛ لأنه خاتم الرسالات التي أكمل الله بها الشرائع السابقة. ولقد كان النبي ﷺ يولي في

الغزوات والسررايا والبعوث، أحياناً أبا بكر، وأحياناً زيد بن حارثة، وأحياناً أسامة بن زيد وهو ابن مولى على كبار الصحابة بل إنه رد على انتقاد الناقدين عندما جهز جيش أسامة بقوله: «إن تطعنوا في إمرته فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل وأيم الله إن كان خليقاً للإمرة وإن كان لمن أحب الناس إلي وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده»^(١) وانتدب الناس يلتفون حول أسامة بن زيد رضي الله عنه.

المبحث الثاني: مجالات العالمية من خلال قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ في القرآن الكريم.

رسالة الإسلام هي الرسالة الخاتمة لكل الإنسانية دون استثناء، ورسول الإسلام صلى الله عليه وسلم هو الرسول الخاتم لكل أجناس البشرية باختلاف مشاربهم وألوانهم ودياناتهم في كل بقاع الأرض، بل هي الرسالة الممتدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ لهذا كان النداء القرآني - المعجزة الخالدة لهذه الرسالة الخاتمة - ذا طابع علمي في كثير من خطابه وتوجيهاته، مثل ذلك الخطاب المتصدر بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ والذي جاء في عشرين موضعاً من القرآن الكريم، وهي موضوع دراسة هذا البحث، حيث تم تقسيم هذه الآيات وفق الموضوع الذي شملته كل آية، ومن ثم تم حصر الآيات المتشابهة الموضوعات تحت مطلب واحد، مرتبة حسب ترتيب المصحف، كل مجموعة على حدة كما هو مبين في الجدول الآتي:

أولاً: خطاب الناس في موضوع العقيدة والتوحيد.

م	الآيات	رقم الآية	السورة
١	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾	٢١	البقرة
٢	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾	١٦٨	البقرة

(١) صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد

الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت: (٤/١٨٨٤) حديث رقم (٢٤٢٦)

(٢) ينظر: فقه السيرة النبوية: محمد الغزالي، الطبعة الأولى، دار النهضة - القاهرة: (٣٩٢)

النساء	١	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾	٣
يونس	١٠٤	﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّأَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾	٤
الحج	٧٣	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسئَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضِعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾	٥
النمل	١٦	﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾	٦
فاطر	٣	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَزِدُّكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لِآلِهَةٍ إِلَّا هُوَ فَاتَى تَوْفِكُمْ ﴾	٧
فاطر	١٥	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾	٨

ثانياً: خطاب الناس في موضوع الرسالة المحمدية للبشر.

النساء	١٧٠	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾	١
النساء	١٧٤	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾	٢

الأعراف	١٥٨	﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾	٣
يونس	٥٧	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْوَمُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾	٤
يونس	١٠٨	﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن اِهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾	٥
الحج	٤٩	﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾	٦

ثالثا: خطاب الناس في مجال الإيمان بالبعث والنشور.

يونس	٢٣	﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾	١
الحج	١	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]	٢
الحج	٥	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّفَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّفَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾	٣

٤	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَاحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾	٣٣	لقمان
٥	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾	٥	فاطر

رابعا: خطاب الناس في مجال الإنسانية الواحدة.

١	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾	١٣	الحجرات
---	---	----	---------

ومن منطلق التقسيم السابق تناولنا هذا المبحث من خلال أربعة مطالب تناولت موضوع العالمية على النحو التالي:

المطلب الأول: العالمية في مجال العقيدة والتوحيد.

لا شك أن الدعوة الإسلامية رسالة شاملة ذات طابع عالمي، من أهم أولوياتها توجيه البشرية وحثها على الإيمان بالخالق الواحد سبحانه، ونبذ كل أشكال الشرك والوثنية، ومن هنا كان الخطاب القرآني الموجه للناس كافة يحمل دلالات عديدة وبراهن ساطعة لإقناع الناس على الإيمان بالإله الواحد دون سواه، والمدقق في الأمر يجد أن الدعوة المكية التي استمرت ثلاثة عشر عاما ركزت على تثبيت جانب التوحيد، ونبذ الشرك والوثنية، وبناء الأخلاق التي تشكل الركيزة المهمة في بناء الإنسان المؤمن بالإله الواحد المعبود، واحترام الإنسانية بكل مشاربهم وألوانهم، وتجسيد مبدأ الإنسانية الواحدة من خلال العبودية لله سبحانه، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى كما قال ﷺ^(١).

(١) ينظر: المسند: أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مؤسسة قرطبة - القاهرة: (٤١١/٥) حديث رقم (٢٣٥٣٦)

وفي هذا المطلب سوف نتناول بالدراسة والتحليل الآيات القرآنية ذات الخطاب العالمي من خلال قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ في مجال التوحيد وذلك من خلال الآيات التي تناولت هذا الجانب في السور القرآنية المختلفة.

١- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]

هذه الآية جاءت في سورة البقرة وهي السورة الثانية في ترتيب المصحف، أما في ترتيب النزول تعد السابعة والثمانين نزلت بعد سورة المطففين وقبل آل عمران^(١). وهي مدنية باتفاق كونها أول ما نزل في المدينة بعد الهجرة^(٢)، والراجح أن نزولها استمر إلى السنة الثامنة للهجرة وهذا لا يمنع أن تكون نزلت سور أخرى في فترة نزولها^(٣).

وبالنظر إلى الآية الكريمة نلاحظ أن الخطاب فيها موجه لكل الناس دون استثناء، مع أن علماء التفسير يعدون مثل هذا الخطاب العام والشامل الذي يتصدر خطابه بـ(يا أيها الناس) من أهم ضوابط السور والآيات المكية، والحقيقة أن هذا الأمر لا يطرد فالآية الكريمة التي نحن بصددنا نزلت في المدنية كون السورة مدنية باتفاق كما حكى ذلك غير واحد من المفسرين، وهذا يعطينا دلالة قاطعة أن الرسالة القرآنية علمية الهدف والغاية في كل مراحل نزولها. «قال بعض العارفين أقبل عليهم بالخطاب جبراً لما في العبادة من الكلفة بلذة الخطاب أي: يا مؤنس لا تنس أنسك بي قبل الولادة أو يا ابن النسيان تنبه ولا تنس حيث كنت نسياً منسياً ولم تك شيئاً مذكوراً فخلقتك وخمرك طيناً ثم نطفة ثم دماً ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً ولحوماً وعروقاً وجلوداً وأعصاباً ثم جنيناً ثم طفلاً ثم صبياً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً وأنت فيما بين ذلك تتمرغ في نعمتي وتسعى في خدمة غيري تعبد النفس والهوى وتبيع الدين بالدنيا لا

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (٢٠٠/١)

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء

التراث الإسلامي - القاهرة: (٩٩/١)

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: (٢٠٠/١)

تنس من خلقك وجعلك من لا شيء شيئاً مذكوراً كريماً مشكوراً علمك وقواك وأكرمك وأعطاك ما أعطاك فهذا خطاب للنفس والبدن»^(١).

فالآية الكريمة ابتدأت بخطاب الناس كافة تدعوهم لعبادة الرب سبحانه المستحق للعبادة دون سواه. يقول السمرقندي في تفسير هذه الآية الكريمة: «﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ يعني أطيعوا ربكم، ويقال: وحدوا ربكم وهذه الآية عامة وقد تكون كلمة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خاصة لأهل مكة وقد تكون عامة لجميع الخلق فهانئنا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ لجميع الخلق يقول للكفار وحدوا ربكم، ويقول للعصاة أطيعوا ربكم، ويقول للمنافقين أخلصوا دينكم معرفة ربكم، ويقول للمطيعين اثبتوا على طاعة ربكم، واللفظ يحتمل هذه الوجوه كلها وهو من جوامع الكلم»^(٢).

ويقول الفيروزآبادي: «قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ ليس في القرآن غيره؛ لأنَّ العبادة في الآية التوحيد، والتوحيد في أول ما يلزم العبد من المعارف. وكان هذا أول خطاب خاطب الله به الناس، ثم ذكر سائر المعارف، وبنى عليه العبادات فيما بعدها من الشُّور والآيات»^(٣).

كما يؤكد ابن عاشور هذا المعنى بقوله: «فإن نظرت إلى صورة الخطاب فهو إنما واجه به ناساً سامعين، فعمومه لمن لم يحضر وقت سماع هذه الآية ولمن سيوجد من بعد يكون بقريئة عموم التكليف وعدم قصد تخصيص الحاضرين، وذلك أمر قد تواتر نقلاً ومعنى فلا جرم أن يعم الجميع من غير حاجة إلى القياس، وإن نظرت إلى أن هذا من أضرب الخطاب الذي لا يكون لمعين فيترك فيه التعيين ليعم كل من يصلح للمخاطبة بذلك، وهذا شأن الخطاب الصادر من الدعاة والأمراء والمؤلفين في كتبهم من نحو قولهم يا قوم، ويافتي، وأنت ترى،

(١) تفسير روح البيان: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوقي، دار إحياء

التراث العربي - بيروت: (٥٧/١)

(٢) بحر العلوم: أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي، تحقيق: د. محمود مطرجي،

دار الفكر - بيروت: (٥٩/١)

(٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (١٣٩/١)

وبهذا تعلم، ونحو ذلك فما ظنك بخطاب الرسل وخطاب هو نازل من الله تعالى كان ذلك عاما لكل من يشمل اللفظ من غير استعانة بدليل آخر»^(١).

قوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ الأمر بعبادة الرب الخالق يؤكد مفهوم العالمية في الخطاب، والإتيان بلفظ (الرب) إيذانا بأحقية الأمر بعبادته فإن المدبر لأمر الخلق هو جدير بالعبادة؛ لأن فيها معنى الشكر وإظهار الاحتياج^(٢).

قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ معناه أن من مقتضيات العبادة أن الله هو خالق الناس جميعا؛ وليس في قضية الخلق كما قلنا شبهة؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يدعي أنه خلق نفسه، أو خلق هذا الكون، بل إن الحق يطلب منا أن نحترم السببية المباشرة في وجودنا؛ فالأب والأم هنا سبب في وجود الإنسان، مع أنه الموجد الذي خلق كل شيء ولكن الله يحترم عمل الإنسان مع أنه سبب فقط^(٣). ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يفيد تذكير الدهريين من المخاطبين الذين يزعمون أنهم إنما خلقهم آباؤهم فقالوا: ﴿نُمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] وفي الآية تذكير لهم بأن آباءهم الأولين لا بد أن ينتهوا إلى أب أول فهو مخلوق لله تعالى. ولعل هذا هو وجه التأكيد بزيادة حرف «من» في قوله: ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الذي يمكن الاستغناء عنه بالاقتصار على ﴿قَبْلِكُمْ﴾؛ لأن «من» في الأصل للابتداء فهي تشير إلى أول الموصوفين بالقبليّة فذكرها هنا استرواح لأصل معناها مع معنى التأكيد الغالب عليها إذا وقعت مع قبل وبعد^(٤).

كلما سبق من أقوال المفسرين يؤكد عالمية الخطاب القرآني في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وذلك من خلال الدعوة الشاملة للخلق إلى توحيد ربهم الذي خلقهم وأوجدهم من العدم، وهذا خطاب يشمل سائر جنس الإنسانية منذ آدم ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كون الخلق هم خلق الله، ورسالة القرآن هي الرسالة العالمية لكل الأرض.

(١) التحرير والتنوير: (٣٢٠/١)

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (٣٢١/١)

(٣) تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم- القاهرة: (١٨٤/١)

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: (٣٢١/١)

٢- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]

وهذه آية أخرى تضمنها سورة البقرة وفيها نداء عالمي لكل الناس يحثهم على التمتع بخيرات الله في الأرض التي وهبهم إياها، وهذا العطاء والرزق يقتضي العبودية والشكر والطاعة للخالق الرازق، وهنا تتجلى عظمة الرازق في تهيئة الأرض وجعلها صالحة للثمار التي هي قوام معيشة الخلق في استمرارهم في البقاء، كما تضمنت الآية النهي عن اتباع طرق الشيطان ووسوسته التي تقود الإنسان إلى كفر النعمة المؤدي إلى عقاب الله.

يقول الشيخ الشعراوي: «﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فكأنه خلق ما في الأرض جميعا للناس جميعا، وهذا ما قلنا عنه: إنه عطاء الربوبية لكل البشر، من آمن منهم ومن لم يؤمن، فهو سبحانه خلق كل الخلق، مؤمنهم وكافرهم، ومادام قد خلقهم واستدعاهم إلى الوجود فهو يوجه الخطاب لهم جميعا؛ مؤمنهم وكافرهم؛ وكأن الخطاب يقول للكافرين: حتى ولو لم تؤمنوا بالله، فخذوا من المؤمنين الأشياء الحلال واستعملوها لأنها تفيدكم في دنياكم؛ وإن لم تؤمنوا بالله، لأن من مصلحتكم أن تأكلوا الحلال الطيب، فالله لم يحرم إلا كل ضار، ولم يحلل إلا كل طيب»^(١).

جاء في التفسير الوسيط: «أذن الله لعباده المؤمنين وغير المؤمنين أن يتناولوا الحلال الطيب المفيد الذي لا شبهة فيه ولا إثم، ولا يتعلق به حق للغير مهما كان، ونهاهم عن اتباع الأهواء والشياطين الذين يوسوسون بالشر، ويزينون المنكر، ويوقعون الناس في الإثم والضلال، فالشيطان لا يأمر إلا بالقبيح، فكل ما يأباه الطبع السليم والعقل الراجح وينكره الشرع هو من أعمال الشيطان وأماراته، فيجب الحذر منه وتجنب ما يوهمه من الخير، والشيطان يأمر الناس عادة أن يقولوا على الله ما لا يعلمون من أمور الشرع والدين»^(٢).

(١) تفسير الشعراوي: (٦٩٧/٢)

(٢) التفسير الوسيط: وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر - دمشق، ط ١، ١٤٢٢هـ: (٧٨/١)

٣- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]

هذه آية أخرى من الآيات التي ابتدأت بخطابها العالمي في مجال العقيدة والتوحيد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وقد جاءت في صدر سورة النساء وهي السورة الرابعة في ترتيب المصحف، والثالثة والتسعون في ترتيب النزول حيث نزلت بعد سورة الممتحنة وقبل سورة الزلزلة، كما اتفق العلماء على أنها نزلت بعد البقرة، فتعين أن يكون نزولها متأخرا عن الهجرة بمدة طويلة وهذا يعني مدينتها باتفاق^(١). وتظهر العالمية بأبهى صورها في هذه الآية الكريمة حيث ينادي الرب تبارك وتعالى عباده بلفظ عام يشمل مؤمنهم وكافرهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ويأمرهم بتقواه عزوجل وهي اتقاء عذابه في الدنيا والآخرة بالإسلام التام إليه ظاهراً وباطناً، واصفاً نفسه تعالى بأنه ربهم الذي خلقهم من نفس واحدة وهي آدم الذي خلقه من طين، وخلق من تلك النفس زوجها وهي حواء، وأنه تعالى بث منهما أي: نشر منهما في الأرض رجالاً كثيراً ونساءً كذلك^(٢). وتتجلى الحكمة الإلهية في جعله العالم بمثابة أسرة واحدة مترابطة العناصر متعاونة متكاملة فيما بينها، يجب كل إنسان أخاه، ويريد الخير له، فالإنسان أخو الإنسان أحب أم كره، لأن المعيشة واحدة، والهدف والمقصد واحد، والمصير المحتوم هو واحد أيضاً حينما ينتهي هذا العالم، ويعود لعالم آخر للحساب والجزاء، وتحقيق العدل والإنصاف التام بين البشر، والقرآن الكريم نص صراحة على وحدة الإنسانية، ووحدة الأسرة، ووحدة الأخوة الإيمانية بين المؤمنين بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر. أما الوحدة الإنسانية التي تجعل البشرية بمثابة الجسد الواحد والنفس الواحدة فقد جاء الإعلان عنها في مطلع سورة النساء^(٣).

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (١/١٦٩). وينظر: التحرير والتنوير: (٤/٦-٧)

(٢) ينظر: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم-المدينة

المنورة، ط ٥، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م: (١/٤٣٣)

(٣) ينظر: التفسير الوسيط للزحيلي: (١/٢٧٨-٢٧٩)

يقول سيد طنطاوي: «وقد تضمن هذا النداء لجميع المكلفين تبيينهم إلى أمرين: أولهما: وحدة الاعتقاد بأن ربهم جميعا واحد لا شريك له، فهو الذي خلقهم وهو الذي رزقهم، وهو الذي يميتهم وهو الذي يحييهم، وهو الذي أوجد أبيضهم وأسودهم، وعربيهم وأعجميهم. وثانيهما: وحدة النوع والتكوين، إذ الناس جميعا على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم قد أخذوا عن أصل واحد وهو آدم - ﷺ»^(١).

ويؤكد هذا المعنى الفخر الرازي بقوله: «فقد اتفقوا على أن الخطاب عام لجميع المكلفين، وهذا هو الأصح لوجوه: أحدها: أن لفظ الناس جمع دخله الألف واللام فيفيد الاستغراق. وثانيها: أنه تعالى علل الأمر بالاتقاء بكونه تعالى خالقا لهم من نفس واحدة، وهذه العلة عامة في حق جميع المكلفين بأنهم من آدم ﷺ خلقوا بأسرهم، وإذا كانت العلة عامة كان الحكم عاما. وثالثها: أن التكليف بالتقوى غير مختص بأهل مكة، بل هو عام في حق جميع العالمين، وإذا كان لفظ الناس عاما في الكل، وكان الأمر بالتقوى عاما في الكل، وكانت علة هذا التكليف، وهي كونهم خلقوا من النفس الواحدة عامة في حق الكل، كان القول بالتخصيص في غاية البعد»^(٢).

فالله هو رب الجميع الذي ربّاهم بنعمه، وأفاض عليهم من إحسانه، وأمدهم بكل وسائل الحياة العزيزة الكريمة، ودكرهم بأنهم من أصل واحد، كلهم لآدم وآدم من تراب، وأنه خلق من تلك النفس الأولى زوجها، وتناسل منهما البشر والنوع الإنساني ذكورا وإناثا، وبهذا تتجلى عالمية الخطاب الموحد لكل أجناس البشرية، ودعوتهم لتوحيد الرب الذي خلقهم وأوجدهم^(٣).

٤- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّأَكُمْ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤]

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم: محمد سيد طنطاوي، دار تحفة مصر للطباعة والنشر

والتوزيع - القاهرة، ط ١: (٢٠/٣)

(٢) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الرازي فخر الدين

الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ: (٤٧٥/٩)

(٣) ينظر: التفسير الوسيط للزحيلي: (٢٧٨/١ - ٢٧٩)

هذه آية أخرى من الآيات التي ابتدأت بخطابها العالمي في مجال العقيدة والتوحيد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وقد جاءت في سورة يونس وهي السورة العاشرة في ترتيب المصحف، والحادية والخمسون في ترتيب النزول حيث نزلت بعد سورة بني إسرائيل وقبل سورة هود، ويظهر أنها نزلت سنة إحدى عشرة بعد البعثة، فتعين أن يكون نزولها في أواخر الفترة المكية، وهو ما ذهب إليه جمهور المفسرين^(١).

وتتجلى العالمية في الخطاب القرآني في هذه الآية الكريمة من خلال التوجيه الإلهي للنبي الذي أرسل إلى الناس كافة قائلاً له: «قُلْ لِّجَمِيعٍ مِّنْ شَكِّ فِي دِينِكَ وَكُفْرٍ بِكَ يَا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أَوْثَرَ الْخَطَابِ بِاسْمِ الْجِنْسِ مَصْدَرًا بِحَرْفِ التَّنْبِيهِ تَعْمِيمًا لِلتَّبْلِيغِ وَإِظْهَارًا لِّكَمَالِ الْعِنَايَةِ بِشَأْنِ مَا بَلَغَ إِلَيْهِمْ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي الَّذِي أَعْبَدُ اللَّهَ تَعَالَى بِهِ وَأَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ وَلَمْ تَعْلَمُوا مَا هُوَ وَلَا صِفَتَهُ حَتَّى قُلْتُمْ إِنَّهُ صَبَأٌ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِّنْ دُونِ اللَّهِ فِي وَقْتٍ مِّنَ الْأَوْقَاتِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ثُمَّ يَفْعَلْ بِكُمْ مَا يَفْعَلُ مَن فَنُونَ الْعَذَابِ»^(٢).

يقول ابن عطية: «في الآية مخاطبة عامة للناس أجمعين إلى يوم القيامة يدخل تحتها كل من اتصف بالشك في دين الإسلام، وهذه الآية يتسق معناها بمحذوفات يدل عليها هذا الظاهر الوجيز، والمعنى إن كنتم في شك من ديني فأنتم لا تعبدون الله فاقتضت فصاحة الكلام وإيجازه اختصار هذا كله، ثم صرح بمعبوده وخص من أوصافه الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ لما فيها من التذكير للموت وقرع النفوس به، والمصير إلى الله بعده والفقْد للأصنام التي كانوا يعتقدونها ضارة ونافعة^(٣).

ويقول الزحيلي عن عالمية هذه الآية في الخطاب: «هذه الآية الكريمة قانون خالد عام، وخطاب مختصر شامل للناس أجمعين إلى يوم القيامة. فبعد أن

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (٢٣٨/١) وينظر: التحرير والتنوير: (٦-٥/١١)

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألويسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٥ هـ: (١٨٤/٦)

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٢٢ هـ: (١٤٦/٣)

أقام القرآن الكريم الأدلة الواضحة على صحة الدين ووحداية الخالق وصدق التبوّة والوحي، أمر الله بإظهار دينه، وإيضاح الفوارق بين الدين الحق والشرك الباطل، حيث يعبد المشركون أصناما وأوثانا لا تضر ولا تنفع^(١).

٥- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]

هذه آية أخرى من الآيات التي ابتدأت بخطابها العالمي في مجال العقيدة والتوحيد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وقد جاءت في سورة الحج وهي السورة الثانية والعشرون في ترتيب المصحف، والخامسة بعد المائة في ترتيب النزول حيث نزلت كما جاء عن ابن عباس بعد سورة النور وقبل سورة المنافقين، وهذا يقتضي أنها عنده مدنية كلها؛ لأن سورة النور وسورة المنافقين مدينتان فينبغي أن يتوقف في اعتماد هذا فيها^(٢). ويذكر الفيروزآبادي: إن السورة مكّية بالاتّفاق، سوى ست آياتٍ منها فهي مديّنة^(٣).

وبالرجوع إلى التأمل في الآية الكريمة نجدتها تصدرت بخطابها العالمي الشامل الموجه لكل الناس دون استثناء، تثبتت لليقين عند المؤمنين، وإفحاماً بالحقيقة للمكذبين، يعلن الله فيها ضعف المعبودات المزيفة من أصنام وغيرها، فهي عاجزة عن خلق ذباب واحد على حقارته، بل أعجب من ذلك أنها عاجزة عن مقاومة الذباب، فلو سلبهم شيئاً لما استطاعوا ان يخلصوا ذلك الشيء منه، وكم هو ضعيف ذلك الذي يهزم أمام حشرة ضعيفة كالذباب، فكيف يليق بإنسان عاقل أن يعبد تلك الأوثان ويلتمس النفع منها! ويحتم الله تعالى هذه الآية بعبارة ناطقة للحقيقة ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ ما أضعف الطالب وهو تلك الآلهة، وما أضعف المطلوب وهو الذباب.

(١) التفسير الوسيط للزحيلي: (١٠١٥/٢)

(٢) بنظر: التحرير والتنوير: (١٣٤/١٧)

(٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (٣٢٣)

وفي هذا الخطاب إعجاز واضح في قدرة الخالق المعبود على كل شيء وضعف كل شيء سواه، سواء من العبودات الهزيلة التي يعبدها البشر حين ينحرفون عن الفطرة السليمة، أو ذلك الذباب الحشرة الضعيفة التي يعجز الخلق من أولهم إلى آخرهم وما يعبدون من آلهة مزيفة أن يخلقوا مثله، بل إنَّ عجزهم لا يقف عند هذا فإن الذباب الذي هو من أضعف مخلوقات الله لو هبط على آلهتهم وامتصَّ ما يعلوها من المواد لعجزوا عن منعه من ذلك واستنقاذ ما امتصَّه منهم ومنعه عن أنفسهم. وإن في هذا الواقع لتتجلى شدة عجز الشركاء وشدة سخف الذين يشركونهم مع الله^(١).

٦- ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]

هذه الآية جاءت في سورة النمل وهي من السور المكية باتفاق، وتعد السورة السابعة والعشرون في ترتيب المصحف، والثامنة والأربعون في عداد نزول السور نزلت بعد الشعراء وقبل القصص^(٢).

تناولت هذه الآية الإرث الذي ورثه سليمان عليه السلام عن أبيه داود عليه السلام، وهو العلم الذي آتاه الله نبيه داود عليه السلام في حياته، والمملك الذي خصه به على سائر قومه، فجعله من بعده لسليمان عليه السلام دون سائر ولد أبيه^(٣).

جاء في التفسير الوسيط: «ومن نعم الله على سليمان عليه السلام: أنه جمع له جنوده من الجنِّ والإنس والطيور، فكان ملكه عظيماً ملاً الأرض، وانقادت له المعمورة كلها، وكان كرسيه يحمله أجناده من الجنِّ والإنس، وكانت الطيور تظللّه من الشمس، ويعيشها في الأمور، وكان هؤلاء الجنود يجمعون بترتيب ونظام، بأن يوقف أولهم ليلحق بهم آخرهم، ويردّ أولهم على آخرهم، لئلا يتقدم أحد عن منزلته ومرتبته، حتى لا يتخلف أحد منهم، وهذا معنى قوله (١) التفسير الحديث: دروزة محمد عزت، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، ط ١، ١٣٨٣هـ: (٧٦/٦)

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (٢١٦/١٩)

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر،

مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م: (٤٣٩/١٩)

تعالى: فَهُمْ يُوزَعُونَ من الوزع، أي الكفّ والمنع، والمعنى: يرّد أولهم على آخرهم ويكفّون. ومن النعم أيضا على سليمان: فهم كلام التمل، فبينما كان سليمان وجنوده مشاة على الأرض، أتوا على وادي التمل إما بالشّام أو غيرها من البلاد، ونادت نملة هي ملكة التمل: يا أيها التمل، ادخلوا بيوتكم، حتى لا يكسرنكم سليمان وجنوده، من غير أن يشعروا بذلك»^(١).

هذا الملك العظيم الذي جمعه الله لنبيه سليمان ﷺ، لم يتكرر مع نبي آخر؛ يدل على هذا دعاؤه ﷺ: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥] ومن هنا تتجلى عالمية خطابه ﷺ في خطابه الناس وهو لفظ يستغرق سائر الناس دون استثناء، يؤكد هذا أنه ضمن أربعة ملكوا الأرض كما قال مجاهد: «ملك الأرض أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان وذو القرنين، والكافران: نمرود و بختنصر»^(٢). ولهذا جاء خطابه عاما شاملا لكل الناس يتناسب مع عظمة ملكه ورقة حكمه.

٧- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]

هذه آية أخرى من الآيات التي ابتدأت بخطابها العالمي في مجال العقيدة والتوحيد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وقد جاءت في سورة فاطر وهي السورة الخامسة والثلاثون في ترتيب المصحف، والثالثة والأربعون في ترتيب نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة الفرقان وقبل سورة مريم، وهي مكية بالاتفاق^(٣).

وبالنظر والتأمل في الآية الكريمة نلاحظ الأمر الموجه للناس قاطبة بشكر نعم الله ورعايتها والاعتراف بها، ولما كانت نعم الله تعالى مع تشعب فنونها منحصرة في نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء، نفى أن يكون في الوجود شيء غيره تعالى

(١) التفسير الوسيط للزحيلي: (١٨٦٩/٢)

(٢) البحر المديد: أحمد بن محمد الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي، دار الكتب العلمية -

بيروت، ط ٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م: (٢٧١/٤)

(٣) ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (٣٨٦/١) وينظر: التحرير والتنوير:

يصدر عنه إحدى النعمتين بطريق الاستفهام الإنكاري المنادي باستحالة أن يجاب عنه بنعم فقال ﴿هل من خالق غير الله﴾ أي هل خالق مغاير له تعالى موجود^(١). و يقول ابن عاشور: «والمقصود من تذكر النعمة شكرها وتقديرها، ومن أكبر تلك النعم رسالة المحمدية التي هي وسيلة فوز الناس الذين يتبعونها بالنعيم الأبدي»^(٢).

ويؤكد هذا الأمر الشيخ السعدي بقوله: «يأمر تعالى جميع الناس أن يذكروا نعمته عليهم، وهذا شامل لذكرها بالقلب اعترافاً، وباللسان ثناءً، وبالجوارح انقياداً، فإن ذكر نعمه تعالى داع لشكره، ثم نبههم على أصول النعم، وهي الخلق والرزق فقال: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ولما كان من المعلوم أنه ليس أحد يخلق ويرزق إلا الله نتج من ذلك أن كان ذلك دليلاً على ألوهيته وعبوديته، ولهذا قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ تُوْفِكُونَ﴾ أي: تصرفون عن عبادة الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق»^(٣).

٨- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]

وهذه آية أخرى تضمنها سورة فاطر وفيها نداء عالمي لكل الناس في مجال العقيدة والتوحيد، مبينا سبحانه حال الخلق بأنهم الفقراء إلى الله المحتاجون إليه في جميع أمور الدين والدنيا، وفي كل حال على الإطلاق، وتعريف الفقراء للمبالغة في فقرهم كأنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء، واللَّهُ هُوَ الْعَنِيُّ عَلَى الْإِطْلَاقِ عَنْ خَلْقِهِ الْحَمِيدُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْحَمْدِ مِنْ عِبَادِهِ بِإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، المحمود في صنعه بهم^(٤).

يقول الشوكاني في تفسير هذه الآية: «ثم ذكر سبحانه افتقار خلقه إليه، ومزيد حاجتهم إلى فضله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي:

(١) ينظر: بحر العلوم: (١٤٢/٧)

(٢) التحرير والتنوير: (١١٣/٢٢)

(٣) (تفسير السعدي) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي:

تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحي، مؤسسة الرسالة، ط ١٤٢٠هـ، ١١-٢٠٠٠م: (٦٨٤)

(٤) ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر

المعاصر - دمشق، ط ٢، ١٤١٨هـ: (٢٤٨/٢٢)

المحتاجون إليه في جميع أمور الدين والدنيا، فهم الفقراء إليه على الإطلاق وهو الغني على الإطلاق. الحميد أي: المستحق للحمد من عباده بإحسانه إليهم^(١). وهكذا تتجلى حقيقة الخلق بكل أجناسهم وانتمائهم بأنهم فقراء لا يملكون لأنفسهم شيئاً في هذا الوجود، فالله هو الذي يعطي ويمنع، ويعز ويذل، وهو المتصرف وحده دون سواه، فهو الغني من له خزائن السماوات والأرض، ولهذا استحق الحمد والشكر من الخلق المساكين الفقراء إليه دون غيره، وهذه الحقيقة تشمل جنس الناس مؤمنهم وكافرهم دون تمييز، وفي ذات الوقت فيها حث على انصياع الخلق لخالقهم والتوجه إليه لأنه وحده من يُطلب، ووحده من يستحق الحمد والتضرع واللجوء إليه.

المطلب الثاني: العالمية في مجال إثبات الرسالة المحمدية للبشر.

لقد بعث الله نبيه محمداً ﷺ لسائر البشر دون استثناء بما فيهم عالم الجن، وبهذا تتضح شمولية هذه الرسالة وعالميتها في مخاطبة الأمة دون النظر للوهم ولغتهم وجنسياتهم وتوجههم، وهذا ما يتضح جلياً من خلال الخطاب القرآني الشامل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ داعياً إياهم إلى الإيمان بالرسول الخاتم ﷺ وهذا ما سنتناوله من خلال التأمل في الآيات القرآنية المتضمنة الخطاب العام والشامل في مجال الإيمان بالرسالة المحمدية من خلال الآيات التالية:

١- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧٠]

هذه الآية جاءت في سورة النساء والتي سبق الحديث عنها في هذا البحث، وهي آية تصدرت بخطاب شامل لكل الناس، أمرة إياهم بالإيمان برسالة محمد ﷺ، موضحة لهم عاقبة هذا الإيمان الذي يكمن فيه التزكية والتطهير من الأدناس والأرجاس، ويرشد الناس للسعادة في الدنيا والآخرة، فالحق هو ما جاء به النبي الخاتم من القرآن المعجز الداعي إلى عبادة الله والإعراض عن الشرك، وإن تكفروا أيها الناس، فإن الله غني عنكم وعن إيمانكم، وقادر على

(١) فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير - دمشق، دار الكلم الطيب - بيروت،

عقابكم، ولا يتضرر بكفرانكم، فإن الله جميع ما في السماوات والأرض ملكا وخلقنا وتصريفا وعبيدا، وشأن العبيد الخضوع لحكم الله وأمره^(١).

يقول محمد سيد طنطاوي: «فالخطاب في الآية الكريمة للناس أجمعين، سواء أكان عربيا أم غير عربي، أبيض أم أسودا، بعيدا أم قريبا؛ لأن رسالته ﷺ عامة وشاملة للناس جميعا»^(٢).

٢- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]

وهذه آية أخرى جاءت في سورة النساء وجه فيها سبحانه نداء عاما إلى الناس أمرهم فيه باتباع طريق الحق، والمراد بالبرهان هنا الدلائل والمعجزات الدالة على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن ربه. ويصح أن يكون المراد به النبي ﷺ وسماه- سبحانه- بذلك بسبب ما أعطاه من البراهين القاطعة التي شهدت بصدقه ﷺ، والمراد بالنور المبين: القرآن الكريم^(٣).

قال الفخر الرازي: «واعلم أنه تعالى لما أورد الحجة على جميع الفرق من المنافقين والكفار واليهود والنصارى وأجاب عن جميع شبهاتهم عمم الخطاب ودعا جميع الناس إلى الاعتراف برسالة محمد ﷺ، وإنما سماه برهانا لأن حرفته إقامة البرهان على تحقيق الحق وإبطال الباطل، والنور المبين هو القرآن، وسماه نورا لأنه سبب لوقوع نور الإيمان في القلب، ولما قرر على كل العالمين كون محمد رسولا وكون القرآن كتابا حقا أمرهم بعد ذلك أن يتمسكوا بشريعة محمد ﷺ ووعدهم عليه بالثواب»^(٤).

٣- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]

(١) ينظر: التفسير الوسيط للزحيلي: (٤١٧/١)

(٢) التفسير الوسيط للطنطاوي: (٣٩٨/٣)

(٣) التفسير الوسيط للطنطاوي: (٤٠٧/٣)

(٤) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): (٢٧٤/١١)

هذه الآية جاءت في سورة الأعراف وهي من السور المكية بلا خلاف، وتعد السورة السابعة في ترتيب المصحف، والتاسعة والثلاثون في ترتيب نزول السور نزلت بعد سورة محمد وقبل سورة الجن^(١). وحكى الفيروزآبادي بأن هذه السورة نزلت بمكة إجماعاً^(٢).

في هذه الآية خطاب عالمي واضح المعالم لمهمة الرسول الخاتم ﷺ، حيث أمره ربه أن يخاطب الناس قاطبة بأنه رسول الله إليهم جميعاً، وهي صفة اختص بها ﷺ دون سواه من الرسل، فهو رسول عالمي لكل الناس.

جاء في تفسير المنار: «هذا خطاب عام لجميع البشر من العرب والعجم وجهه إليهم محمد بن عبد الله النبي العربي الهاشمي بأمر الله تعالى، ينبئهم به أنه رسول الله تعالى إليهم كافة لا إلى قومه العرب خاصة كما زعمت العيسوية من اليهود»^(٣).

ويؤكد هذا المفهوم صاحب كتاب فتح البيان بقوله: «لما تقدم ذكر أوصاف رسول الله ﷺ المكتوبة في التوراة والإنجيل، أمره سبحانه أن يقول هذا القول المقتضى لعموم رسالته إلى الناس والجن جميعاً لا كما كان غيره من الرسل ج، فإنهم كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة»^(٤).

ويقول المراغي عند تفسيره لهذه الآية: «بعد أن حكى عز اسمه ما في التوراة والإنجيل من نعوته ﷺ وذكر شرف من يتبعه من أهلها ونيلهما سعادة الدنيا والآخرة، ففى على ذلك بيان عموم بعثته ﷺ ودعوة الناس كافة إلى الإيمان به وأمره بتبليغهم دعوته فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ أي قل لجميع البشر من عرب وعجم إني رسول الله إليكم كافة لا إلى قومي خاصة»^(٥).

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (٧-٦/٨)

(٢) بصائر ذوي التمييز: (٢٠٣/١)

(٣) تفسير المنار: محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م: (٢٥٥/٩)

(٢٥٦)

(٤) فتح البيان في مقاصد القرآن: أبو الطيب محمد صديق خان القنوجي: عني بطبعه وقدم له وراجعته: خادم العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والتشريع صيدا

بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م: (٥٣/٥)

(٥) تفسير المراغي: (٨٤/٩)

٤- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]

وهذه آية أخرى جاءت في سورة يونس فيها خطاب علمي شامل للناس كافة تدعوهم فيه إلى الإقبال على ما جاء به الرسول ﷺ من مواظب فيها الشفاء لما في الصدور، وفيها الهداية لما في النفوس. يقول البيضاوي في تفسير الآية: «أي قد جاءكم كتاب جامع للحكمة العملية الكاشفة عن محاسن الأعمال ومقابحها المرغبة في المحاسن والزاجرة عن المقابح، والحكمة النظرية التي هي شفاء لما في الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد وهدى إلى الحق واليقين ورحمة للمؤمنين، حيث أنزلت عليهم فنجوا بها من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان، وتبدلت مقاعدهم من طبقات النيران بمصاعد من درجات الجنان، والتنكير فيها للتعظيم»^(١).

وعن علمية هذا الخطاب القرآني يقول صاحب التحرير والتنوير: «وهو خطاب جميع الناس بالتعريف بشأن القرآن وهديه، بعد أن كان الكلام في جدال المشركين والاحتجاج عليهم بإعجاز القرآن على أنه من عند الله وأن الآتي به صادق فيما جاء به من تهديدهم وتخويفهم من عاقبة تكذيب الأمم رسلها»^(٢). ويؤكد هذا المعنى صاحب زهرة التفاسير بقوله: «النداء للناس جميعاً عرباً كانوا أم عجماً؛ لأن شريعة الله للناس كافة كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ ولذا كان النداء بالبعيد لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تبين هذه الآية أن ما جاء به ﷺ قد اجتمعت فيه عناصر أربعة هي أقسام القرآن الكريم وهدايته»^(٣).

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١٤١٨هـ، ١: ١١٦/٣

(٢) التحرير والتنوير: (١٠٨/١١)

(٣) زهرة التفاسير: محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي - بيروت: (٣٥٩٤/٧)

٥- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨]

وهذه آية أخرى جاءت في سورة يونس فيها خطاب عالمي شامل للناس كافة، خاطب الله بها جميع الناس والجن أيضا إلى يوم القيامة أبد الدهر، يأمر الله فيها رسوله أن يخاطب الناس قاطبة من كان في زمن الرسالة ومن سيأتي إلى يوم الدين بقوله: قد جاءكم الحق المبين من ربكم، يبين حقيقة هذا الدين، وكمال هذه الشريعة، على لسان رجل منكم، بلسان عربي مبين^(١).

جاء في التفسير الواضح: «هذا النداء المأمور به الرسول الأعظم هو للناس جميعا على اختلاف أشكالهم وألوانهم من سمع منهم بالقرآن ومن سيسمع في المستقبل وهو إجمال عام لما في السورة. قل يا أيها الرسول للناس جميعا قد جاءكم الحق من ربكم على لسان رجل منكم أوحى إليه، هذا الحق الثابت الذي لا شك فيه كتاب أحكمت آياته، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فمن اهتدى به فإنما يهتدى لنفسه ومن كفر فإنما يضل على نفسه، وما أنا عليكم بوكيل، إن أنا إلا نذير وبشير»^(٢).

٦- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الحج: ٤٩]

وهذه آية أخرى جاءت في سورة الحج فيها خطاب عالمي شامل للناس كافة يأمر الله فيها رسوله ﷺ أن يخاطب الناس قاطبة، يبين لهم حقيقة مهمته وهي الإنذار. يقول صاحب زهرة التفاسير: «الخطاب للناس كافة، وللمشركين من أهل مكة خاصة ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (إنمّا) للقصر، والقصر هنا لأنهم طلبوا استعجال العذاب ولضلالهم البعيد، ولاستمكان الغفلة عن الحق في قلوبهم، يقولون للنبي ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيقول لهم النبي ﷺ بأمر ربه: إن عملي فيكم، ورسالتي إليكم، أني نذير موضح مبين لكم الحق والشريعة، والعذاب أمره إلى الله تعالى وحده، وكذلك الثواب والعقاب إليه وحده، وكل امرئ بما كسب رهين^(٣).

(١) التفسير الوسيط للزحيلي: (١٠١٧/٢)

(٢) التفسير الواضح: محمد محمود حجازي، دار الجيل الجديد - بيروت، ط ١٠، ١٤١٣هـ: (٩٤/٢)

(٣) زهرة التفاسير: (٥٠٠٢/٩)

المطلب الثالث: عالمية خطاب الناس في مجال الإيمان بالبعث والنشور.

١- ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣].

هذه الآية الكريمة جاءت في سورة يونس وقد تم التعريف بالسورة سابقا، تتناول هذه الآية الحديث عن سلوك كثير من البشر تجاه نعمة الخالق، فما إن ينعم عليهم بالرحمة والفضل، ويكشف عنهم البؤس والضرر، وبدلا من أن يشكروا ربهم ويمجدوه على ما منحهم من النجاة، إذا هم يسرعون في المكر والكفر والبغي في الأرض، ولهذا خاطبهم الله خطابا عاما وشاملا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فكان الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للتنبية الشديد بالمواجهة والتصدي لبيان شرهم، وكان النداء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ لكمال هذا التنبية الزاجر، ولبيان سوء العاقبة ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي أن البغي على أنفسكم وحدكم لا يتجاوزكم إلى غيركم، ذلكم أنكم إن أشعتم البغي فيما بينكم عم الفساد فيكم ولم تكن منكم جماعة فاضلة ذات حقوق وواجبات بل جماعة متحللة متقاطعة متدابرة تعمها الرذيلة ويسودها الشر يتجرد فيها الإنسان عن إنسانيته والمرء عن مروءته وفوق ذلك عقوبة يوم الدين^(١).

ويطلق النداء في الآية بأسلوب عام وشامل لكل الناس؛ لتكون قضية عامة وشاملة تظل إلى الأبد بعد ما تقدم فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وكأنه يخاطب الباغي: يا من تريد أن تأخذ حق غيرك، اعلم أن قصارى ما يعطيك أخذ هذا الحق هو بعض من متاع الدنيا، ثم تجازى من بعد ذلك بنار أبدية، مقرر سبحانه حقيقة البعث والنشور والعودة إلى الله للجزاء والحساب^(٢).

(١) ينظر: زهرة التفاسير: (٣٥٤٦/٧)

(٢) ينظر: تفسير الشعراوي: (٥٨٥٧/١٠)

٢- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

هذه الآية الكريمة جاءت في سورة الحج وقد تم التعريف بالسورة سابقا، تتناول هذه الآية الحديث عن أهوال يوم القيامة حيث يخاطب الله في هذه الآية الناس جميعا وهو خطاب عالمي شامل لكل البشرية دون استثناء. يقول ابن عاشور: «نداء للناس كلهم من المؤمنين وأهل الكتاب والمشركين الذين يسمعون هذه الآية من الموجودين يوم نزولها ومن يأتون بعدهم إلى يوم القيامة، ليتلقوا الأمر بتقوى الله وخشيته، أي خشية مخالفة ما يأمرهم به على لسان رسوله»^(١).

ويؤكد هذا المفهوم أبو السعود بقوله: «﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ خطاب يعم حكمه المكلفين عند النزول، ومن سينتظم في سلوكهم بعد من الموجودين القاصرين عن رتبة التكليف، والحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة، وإن كان خطاب المشافهة مختصا بالفريق الأول على الوجه الذي مر تقريره في مطلع سورة النساء، ولفظ الناس ينتظم الذكور والإناث حقيقة، وأما صيغة جمع المذكور فواردة على نهج التغليب»^(٢).

والنداء العالمي الشامل للناس في هذه الآية فيه أمر بامتثال أوامر الخالق سبحانه واجتناب نواهيه حتى يفوزوا برضاه يوم القيامة، ثم بين بعضا من أهوال القيامة التي تزلزل كل شيء، حتى أن المرضعة تذهل عن طفلها، وتضع كل امرأة حامل جنينها، وترى الناس سكارى من الرعب والهول وفي حقيقة الأمر ليسوا سكارى، وإنما رهبة الموقف وشدته.

٣- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ

(١) التحرير والتنوير: (١٣٥/١٧)

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: محمد بن محمد العمادي أبو السعود، دار إحياء

التراث العربي - بيروت: (٩١/٦)

بِهَيْجٍ ﴿[الحج: ٥].

يخاطب الله في هذه الآية الكريمة الناس خطابا عالميا شاملا مباشرا للناس جميعا مبينا لهم إن كانوا في شك من يوم البعث والقيامة، فعليهم أن ينظروا لبدء خلقهم من العدم، فالذي خلقهم من العدم قادرا على إعادتهم، فالإعادة أسهل من البداية. يقول الشيخ الزحيلي: «هذا لون صريح من مباشرة الحوار الرباني مع الناس، فيا أيها البشر، إن كنتم في شك من إمكان البعث ومجيئه يوم القيامة، فانظروا إلى بدء خلقكم، فمن قدر على البدء قدر على الإعادة، بدليل مراحل خلق الإنسان السبع المذكورة في الآية»^(١).

ويقول الشيخ حجازي في تفسيره الواضح: «يا أيها الناس جميعا من كل جنس ولون، في كل عصر وزمن، إن كنتم في شك من البعث - وهذا الشك يجب أن يكون بسيطا جدًا يزول بأدنى تنبيه لتضافر الأدلة على ثبوته - فاتركوه، وانظروا مما خلقتم؟! ولقد كان اعتماد المنكرين للبعث على أنه يستحيل حياة بعد موت وتفرق للأجزاء وانعدام لها بل تحولها إلى شيء آخر، ومن الذي يعيد الحياة لتلك العظام النخرة التي أصبحت ترابا أو صارت ذرات في الهواء، أو انتهى أمرها إلى بطون السباع أو بطون السمك والحيتان؟! وعلى أي وضع يكون حساب وعقاب؟! فنزل القرآن ينادى بالبعث، ويسوق الأدلة كالصواعق أو أشد»^(٢).

٤ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]

هذه الآية الكريمة جاءت في سورة لقمان، وهي من السور المكية كما روى البيهقي في دلائل النبوة^(٣)، وهي أيضا مكية كلها عند ابن عباس في أشهر قولييه وعليه إطلاق جمهور المفسرين وعن ابن عباس من رواية النحاس استثناء

(١) التفسير الوسيط للزحيلي: (١٦٢٦/٢)

(٢) التفسير الواضح لحجازي: (٥٦٦/٢)

(٣) دلائل النبوة: أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي، دار الكتب العلمية - بيروت،

ثلاث آيات من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٧ - ٢٩]، وهذه السورة هي السابعة والخمسون في تعداد نزول السور، والإحدى والثلاثون في ترتيب المصحف، نزلت بعد سورة الصافات وقبل سورة سبأ^(١).

وفي هذه الآية الكريمة خطاب عالمي شامل للناس كافة يأمرهم بتقوى ربهم الذي خلقهم، ويحذرهم من هول يوم عظيم - يوم القيامة - الذي تنتهي الفوارق والأحساب والأنساب بين البشر، فلا والد يجزي عن ولده شيئاً ولا العكس فالجميع مشغول بنفسه. يقول ابن عاشور في تفسيره: «إن لم يكن ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاباً خاصاً بالمشركين فهو عام لجميع الناس كما تقرر في أصول الفقه، فيعم المؤمن والمشرك والمعتل في ذلك الوقت وفي سائر الأزمان، إذ الجميع مأمورون بتقوى الله وأن الخطوات الموصلة إلى التقوى متفاوتة على حسب تفاوت بعد السائرين عنها، وقد كان فيما سبق من السورة حظوظ للمؤمنين وحظوظ للمشركين فلا يبعد أن تعقب بما يصلح لكلا الفريقين»^(٢).

ويقول الشيخ الشعراوي: «خطاب الحق سبحانه لعباده ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يدل على أنه تعالى يريد أن يسعدهم جميعاً في الآخرة... فالخطاب هنا عام للناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم، فالله تعالى يريد أن يدخلهم جميعاً حيز الإيمان والطاعة، ويريد أن يعطيهم ويمنّ عليهم ويعينهم، وكأنه سبحانه يقول لهم: لا أريد لكم نعم الدنيا فحسب، إنما أريد أن أعطيكم أيضاً نعيم الآخرة»^(٣).

٥- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

هذه آية أخرى من الآيات التي ابتدأت بخطابها العالمي في مجال إثبات البعث والنشور، وقد جاءت في سورة فاطر التي سبق الحديث عنها. وفي هذه الآية الكريمة خطاب عالمي للناس كافة، وفيه تحذير من أن تذهلهم الدنيا

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز: (٣٧٠/١) وينظر: التحرير والتنوير: (٨٦/٢١-٨٧)

(٢) التحرير والتنوير: (١٣١/٢١)

(٣) تفسير الشعراوي: (١١٧٥٦/١٩)

بمتاعها وزخرفها فلا يشعرون بأنفسهم إلا وقد حلت عليهم القيامة وحينئذ لا يملكون لأنفسهم شيئاً، ولا ينفعهم الندم ولات ساعة مندم.

يقول الشيخ الزحيلي في تفسيره: «أبانت آيات سورة فاطر في مطلعها ثلاثة أصول إيمانية: الأول: التوحيد الإلهي، والثاني: الرسالة النبوية، وهذا مما سبق بياضهما، والثالث: الحشر والبعث، وهذا موضوع الآيات المذكورة هنا يعظ الله تعالى جميع العالم، ويحذرهم غرور الدنيا بنعيمها وزخرفها، وينبئهم إلى عالم المعاد، فإن وعد الله بالبعث والجزاء حق ثابت لا شك فيه، والمعاد كائن لا محالة، بما فيه من خير ونعيم، أو عذاب مقيم، فلا تلهتوا بمغريات الدنيا ولذائدها عن العمل للآخرة، ولا يغرنكم الشيطان بالله، فيجعلكم في أوهام وآمال خيالية، ولا تلهينكم الحياة الدنيوية»^(١).

المطلب الرابع: علمية خطاب الناس في مجال الإنسانية الواحدة.

١- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

هذه الآية الكريمة جاءت في سورة الحجرات، والسورة مدنية بالإجماع. يقول البقاعي: «مدنية إجماعاً، وشدَّ من قال: مكية»^(٢) ويقول ابن عاشور: «وهي مدنية باتفاق أهل التأويل، أي مما نزل بعد الهجرة»^(٣). وذكر السيوطي في الإتقان: أنها مكية وهو قول شاذ لا يعتد به؛ لأنه لا يعرف قائل هذا القول^(٤). وهي السورة التاسعة والأربعون في ترتيب المصحف، والثامنة بعد المائة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة المجادلة وقبل سورة التحريم وكان نزولها سنة تسع^(٥). وفي هذه الآية الكريمة يتجلى الخطاب العالمي الشامل لكل الناس مؤمنهم

(١) التفسير الوسيط للزحيلي: (٢١٢١/٣)

(٢) مَصَاعِدُ النَّظَرِ لِلْإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السُّورِ: إبراهيم بن عمر البقاعي، مكتبة المعارف -

الرياض، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م: (٥/٣)

(٣) التحرير والتنوير: (١٨٧/٢٦)

(٤) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تحقيق:

محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م: (٤٩/١)

(٥) التحرير والتنوير: (١٨٧/٢٦)

وكافرهم، مبينا لهم أن أصلهم واحد من جنس واحد يرجعون إليه وهو آدم وحواء، ثم جعلهم شعوبا وقبائل للتعارف، فلولم يحصل هذا الانتشار لم يحصل التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون والتوارث، لكنه جعل الفضل والكرم بالتقوى والطاعة، فليس للنسب والانتماء والقبيلة مزية عند الله فالجميع لآدم وآدم من تراب. ومن هنا أزال الإسلام الفوارق والعصبية والطبقية والعرقية وجعل الناس جميعا من عرب وفرس وروم كلهم سواسية لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ومدى قربيه من الله عزوجل. يقول سيد قطب: «وهكذا تسقط جميع الفوارق، وتسقط جميع القيم، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان»^(١). ويؤكد هذا المفهوم ابن عاشور بقوله: «ونودوا بعنوان الناس دون المؤمنين رعيًا للمناسبة بين هذا العنوان وبين ما صدر به الغرض من التذكير بأن أصلهم واحد، أي أنهم في الخلقة سواء ليتوسل بذلك إلى أن التفاضل والتفاخر إنما يكون بالفضائل وإلى أن التفاضل في الإسلام بزيادة التقوى»^(٢).

(١) في ظلال القرآن: (٣/٧)

(٢) التحرير والتنوير: (٢١٥/٢٦)

الخاتمة والاستنتاج.

وبعد دراسة الآيات التي تصدرت خطابها بالنداء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ رأينا من خلالها المنهج العالمي لهذه الرسالة المحمدية التي لم تقتصر على فئة أو جماعة معينة من الناس، بل هي شاملة عامة لكل أطراف البشر تخاطبهم تحت مبدأ الإنسانية الواحدة المستعبدة الخالق واحد دون سواه، ومن هنا تتجلى عظمة هذه الرسالة وقوتها من خلال شمولها لكل الأمة دون استثناء.

ومن خلال دراستي لعشرين موضعاً من الآيات التي تصدرت خطابها بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ رأيت الخطاب العالمي فيها يهدف إلى تقرير ما يأتي:

١. إن هذا القرآن كلام معجز لا يضاهيه كلام البشر أياً كان مستواه؛ ولهذا تحدى أرباب الفصاحة من أن يأتوا ولو بآية واحدة مثله تضاهيه في الأسلوب والبيان والنظم.
٢. مجال العقيدة والتوحيد وذلك من أجل استنهاض الناس لمعرفة خالقهم، والتخلص من عبادة الجمادات والمخلوقات إلى عبادة الخالق الواحد.
٣. مجال الرسالة المحمدية الشاملة والموجهة للناس كافة، فهي رسالة علمية الهدف والنشأة.

٤. نداء الناس وحثهم على الإيمان بالمعاد واليوم الآخر، فهو المصير النهائي لكل الناس دون استثناء، والجميع خاضع لسلطة الخالق سبحانه القائل:

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧]

٥. مجال الإنسانية الواحدة وتعريف الخلق بأصلهم وماهيتهم وأن الجميع خلق الله كلهم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لبشر على بشر في ميزان الله إلا بالتقوى.

٦. العالمية المطلقة في أسلوبه وتوجيهاته فهو لا يخص المجتمع الذي عاصر التنزيل وإنما يخص كل بني الإنسانية عبر تعاقب الأزمنة والأمكنة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والعبرة فيه «بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».

٧. يهدف من خلال علميته إلى بناء الإنسانية الواحدة في النزعة والهدف في كل مجالاتها الحياتية المتنوعة، من خلال عالمية الأوامر والنواهي المستنبطة من عموم لفظه لا خصوص سببه.

كما اقتضى هذا البحث العديد من التوصيات أهمها:

١- حث الباحثين والمهتمين بالدراسات القرآنية على البحث والدراسات الجادة المدعمة بالشواهد والأدلة على عالمية الرسالة المحمدية التي جاءت للناس كافة.

٢- تفعيل دور المؤتمرات العالمية البحثية المهمة بالدراسات القرآنية بتوجيه البوصلة نحو دراسة عالمية الرسالة الخاتمة، كي تصل هذه الحقائق إلى كل البشرية اليوم، وخاصة غير المسلمين الجاهلين بحقيقة الإسلام.

٣- التركيز على القوة الكامنة في هذا الدين، والذي يعمل بقوة الله تعالى في استقطاب الكثير من جهابذة الغرب وعلمائه، بعد دراستهم لحقيقة هذا الدين، ووصولهم لقناعة ذاتية أن هذا الدين هو خير الأديان الذي اكتمل به النمو الطبيعي للأديان، فهو مكمل ومهيمن على ما سبقه من الأديان والكتب السماوية.

٤- التعريف بحقيقة هذه الرسالة الموجهة لكل الأطياف البشرية باختلاف مشاربهم وتنوعهم، وذلك عن طريق الترجمة الأمينة والنزيهة للكتب والأبحاث الإسلامية التي تقدم الإسلام تقديمًا صحيحًا نظيفًا لغير المسلمين.

وأخيرا أسأل الله العلي العظيم أن يوفقني فيما قصدت وكتبت، فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان، والشكر أولا وأخيرا لله عزوجل الذي أعانني وأحاطني بعنايته في كتابة هذا البحث المتواضع، كما هو موصول لكل من يسدد فيه النقص والزلل، وأسأل الله عزوجل التوفيق والنجاح لنا وجميع المسلمين.

قائمة المراجع والمصادر.

- ١) أبعاد غائبة عن فكر وممارسات الحركات الإسلامية المعاصرة، طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - فرجينيا، أمريكا، ط ١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.
- ٢) الإتقان في علوم القرآن: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م.
- ٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: محمد بن محمد العمادي أبو السعود، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٤) أضواء البيان: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- ٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١، ١٤١٨ هـ.
- ٦) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط ٥، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- ٧) بحر العلوم: أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي، تحقيق: د. محمود مطرجي، دار الفكر - بيروت.
- ٨) البحر المديد: أحمد بن محمد الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ٢، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
- ٩) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي - القاهرة.
- ١٠) البعد العالمي في الخطاب القرآني، بقلم: عبد الكريم حامدي، مجلة الوعي

الإسلامي، العدد: (٥٣٠).

(١١) التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي - بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

(١٢) التفسير الحديث: دروزة محمد عزت، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، ط١، ١٣٨٣هـ.

(١٣) تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان): عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي: تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويح، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(١٤) تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم - القاهرة.

(١٥) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: محمود حسن، دار الفكر - بيروت، الطبعة الجديدة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

(١٦) تفسير المنار: محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

(١٧) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر - دمشق، ط٢، ١٤١٨هـ.

(١٨) التفسير الواضح: محمد محمود حجازي، دار الجيل الجديد - بيروت، ط١٠، ١٤١٣هـ.

(١٩) التفسير الوسيط للقرآن الكريم: محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة، ط١.

(٢٠) التفسير الوسيط: د وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر - دمشق، ط١، ١٤٢٢هـ.

(٢١) تفسير روح البيان: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوئي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٢٢) جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، تحقيق:

- أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- (٢٣) الخصائص العامة للإسلام: د. يوسف القرضاوي، دار الشهاب- الجزائر.
- (٢٤) دلائل النبوة: أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ.
- (٢٥) دليل الناقد الأدبي: د. ميجان الرويلي، ود. سعد البازعي، ط ٤، بيروت- لبنان.
- (٢٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ.
- (٢٧) زهرة التفاسير: محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي- بيروت.
- (٢٨) صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ط ٣، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- (٢٩) صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي- بيروت.
- (٣٠) فتح البيان في مقاصد القرآن: أبو الطيب محمد صديق خان القنوجي: عني بطبعه وقدم له وراجعته: خادم العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر صيدا - بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- (٣١) فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير- دمشق، دار الكلم الطيب- بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ.
- (٣٢) الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد: د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة- القاهرة، مصر. ط ٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
- (٣٣) فقه السيرة النبوية: محمد الغزالي، الطبعة الأولى، دار النهضة- القاهرة.

(٣٤) في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق- بيروت، طبعة جديدة مشروعة، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

(٣٥) كيف نتعامل مع القرآن: محمد الغزالي، دار الانتفاضة - الجزائر.

(٣٦) لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط ١، دار صادر - بيروت.

(٣٧) مجلة الوعي الإسلامي، الصادرة عن وزارة الأوقاف والإرشاد- دولة الكويت، العدد (٥٣٠)

(٣٨) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ.

(٣٩) مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان- بيروت - ١٤١٥ - ١٩٩٥م.

(٤٠) المسند: أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مؤسسة قرطبة - القاهرة.

(٤١) مَصَاعِدُ النَّظَرِ لِلإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّيَرِ: إبراهيم بن عمر البقاعي، مكتبة المعارف - الرياض، ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م.

(٤٢) معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر- بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٤٣) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الرازي فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ.

(٤٤) منهجية القرآن المعرفية: محمد أبو القاسم حاج حمد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي- فرجينيا- أميركا، ط ١، ١٤١١هـ-١٩٩١م.